مصادر الإبداع

أود أن أعرض بعضا من المصادر التقليدية للإبداع في هذا القسم وكذلك بعض المصادر الأخرى. وسيخدم ذلك العرض كلا المصدرين لوضع التقنيات النظامية للتفكير الجانبي في الاعتبار وتوليد بعض النقاط العملية عن التفكير الإبداعي.

البراءة

البراءة هي إبداع الأطفال التقليدي. وإن لم يكن لديك علم بالأسلوب المعتاد، والحل المعتاد، والمفاهيم المعتادة المستخدمة، فربما تأتي بأسلوب مستحدث. وإن لم تكن معتادا على معرفة القيود ومعرفة ما لا يمكن عمله، فستكون لديك الحرية لاقتراح أسلوب جديد.

عندما قام الأخوان مونتجولفير Montgolfier بالمحاولة الأولى للطيران بمنطاد الهواء الساخن، وصلت أخبار هذا الحدث مسامع الملك في باريس الذي نظر إليها في الحال نظرة عسكرية، وطلب رئيس المكتب العلمي السيد م. تشارلز M. Charles وأوكل إليه مهمة إنتاج بالون. فركّز هذا العالم تفكيره وتساءل: «كيف تمكنوا من طيران هذه البدعة؟» و بعد فترة قصيرة خطرت له فكرة المعادلة الفرنسية «ايريكا» Eureka التي جعلته يقفز من مكانه قائلا. «لابد أنهم استخدموا الغاز الجديد المسمى هيدروجين الذي هو أخف من الهواء!». ولذا عمل على اختراع المنطاد الهيدروجيني وهو نمط مختلف تماما للبالون.

تم إرسال مجموعة من طلاب المرحلة الثانوية لعدة سنوات مضت في جنوب السويد من قبل جانار ويسمان Gunnar Wessman الرئيس التنفيذي لشركة بيرستورب Perstorp وأعطاهم بعض التدريب على التفكير الجانبي. ومن ثم أقبل العديد من الشخصيات الحكومية والصناعية من ستوكهولم Stockholm لوضع مشاكلهم بين يدي هؤلاء الشباب. يتعلق أحد تلك المشاكل بكيفية تحفيز العاملين للعمل في عطلة نهاية الأسبوع في أحد المصانع التي تحتاج أن تعمل باستمرار خلال نهاية الأسبوع. وببراءة هؤلاء الفتية تم اقتراح أن يوجد مجموعة جديدة من العاملين تعمل فقط في نهاية الأسبوع بدلا من تحفيز المجموعة الموجودة. جُربت هذه الفكرة وانهالت الطلبات للعمل المطلوب أكثر مما هو متوقع. فقد افترض الكبار أن لا أحد يرغب بالعمل في نهاية الأسبوع وأن النقابات لن تسمح بذلك، وهكذا.

ورغم أن الصغار يمتازون بالحيوية والأصالة إلا أنه من الممكن أن يكونوا غير مرنين (كما أشرت مسبقا) ومن الممكن أن يرفضوا وضع بدائل إضافية. يأتي الإبداع من عفويتهم وحيويتهم أكثر من كونه يأتي نتيجة البحث عن أسلوب جديد.

ولسوء الحظ، فليس من السهل أن نبقى بريئين وجاهلين ونحن نكبر. كما أنه ليس من المعقول أن نبقى ساذجين فيما يخص مجالنا. لذا ما هي النقاط العملية التي من الممكن أن نأخذها من إبداع البراءة؟

ربما نستمع للصغار في ظروف معينة. ومن غير المحتمل أن يقدم الصغار حلولا جذرية، ولكن إن كان المستمعين على استعداد للتركيز على الأساسيات فإنه من الممكن استنباط بعض الطرق منها.

تشعر بعض القطاعات التي تعمل بشكل تقليدي وفطري، مثل قطاع تجارة التجزئة وصناعة الأجهزة، أن لديها إجابة لكل الأسئلة. هناك شعور بأنك يجب أن تنشأ مع العمل لتستطيع أن تقدم مساهمة جيدة. وهناك بعض

الصناعات التي ترى أنه لابد من اقتباس بعض الأفكار من الخارج. وهذه تبعث التجديد الذي لا نستطيع الحصول عليه من داخل المنظمة مهما بلغت خبرتها.

هناك نقطة مهمة عملية تتعلق بالبحث. من الطبيعي عند دخول حقل جديد قراءة كل ما يتعلق حوله. وإن لم تفعل ذلك فإنك لن تستطيع استخدام ما هو معروف وأنت تخاطر بإضاعة وقتك بإعادة اختراع العجلة. ولكن لو قمت بالاطلاع فإنك تحطم الفرص بأن تكون أنت الأصل. وأثناء القراءة سوف تأخذ في اعتبارك المفاهيم الموجودة والإدراكات. قد تقوم بمحاولة لتحديها وحتى أنك قد تأخذ الاتجاه المعاكس ولكن لا يمكن أن تبرأ تماما من الأفكار الموجودة فعلا. ولن يكون لديك فرصة لتطوير المفهوم إلا أن يشكل تغيرا طفيفا عن المفهوم التقليدي. ولذا إذا أردت الكفاءة فعليك بالقراءة الواسعة ولكن إن أردت الأصالة فلا تفعل.

الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هي القراءة بشكل كاف حتى يتكون لديك شعور بالحقل الجديد. ومن ثم توقف وقم بتفكيرك الخاص. وعندما تتكون لديك بعض الأفكار الخاصة بك عليك بمزيد من القراءة. وبعدها توقف وقم بمراجعة أفكارك وقم بتطوير أفكارا جديدة. عد بعدها وتابع القراءة. بهذه الطريقة يكون لديك الفرصة لأن تكون أنت الأصل.

عندما ينضم شخص إلى منظمة جديدة، ستفتح أمامه نافذة جديدة من التجديد لمدة تتراوح ما بين ستة إلى ثمانية أشهر. قبل الشهر السادس لن يتكون لدى الشخص الجديد معلومات كافية تشعره بالعمل (إلا إذا كان عملا بسيطا جدا). أما بعد الشهور الثمانية عشر يصطبغ الفرد بالثقافة المحلية وبالطريقة التي يجب أن تعمل بها الأشياء بحيث يصير الفكر البريء المفعم بالنشاط غير ممكن.

لا بد من ملاحظة أن بعض الأعمال التي تبدو أكثر صرامة هي أكثر

طراوة مثل ما يخص الإعلان والتلفزيون. هناك قواعد ثابتة بل أيضا قوانين فيزيائية لتوجيه السلوك في بعض الحقول الأخرى. ولأن هذه غائبة في الحقول الهينة، فقد أوجد العاملون في تلك المجالات قواعد تحكمية وخطوط إرشادية لأنفسهم ليشعروا بالأمان. لو كان كل شيء ممكن فكيف ستعرف ماذا ستفعل؟ ولذا أنشئت الخطوط الإرشادية حسب التقاليد ووجد الناس أنفسهم مجبرين على العمل ضمن تلك القواعد التحكمية. في مثل تلك المجالات نفتقد البراءة ونتجاهلها.

الخبرة

من الواضح أن الإبداع الناجم عن الخبرة هو عكس الإبداع الناجم عن البديهة. فمن خلال الخبرة نعرف الأشياء التي تعمل. وبالتالي نتمكن من معرفة ما ينجح منها وما يفشل.

كان أول نموذج للعمليات الإبداعية الناجمة عن الخبرة «الجرس والصفير». تلك الفكرة التي عملت بشكل جيد قبل أن يضاف لها بعض التعديلات من أجل أن تظهر كفكرة جديدة. وهذا هو غالبا نوع الاختلافات الإنتاجية الذي تحدثنا عنه في سلوك المنافسة الشريفة.

النموذج الآخر لعملية الإبداع الناجم عن الخبرة هو «ابن لاسي» son of Lassie. لو كتب النجاح لشيء ما فمن الممكن إعادته. فمثلا لو نجح الفيلم روكي Rocky لماذا لا ننتج روكي 2 ومن ثم 3 وبعدها 4 و5. تغطي هذه الاستراتيجية النقل، والاستعارة ومنتجات تكرار الذات. إن نجاح نمط جديد في الإعلان سوف ينتج عنه الكثير من المقلدين. هذا النوع من الإبداع شائع جدا في أمريكا الشمالية، حيث تكره المخاطرة. فإذا كان لديك علم بأن بعض الأمور تجري على ما يرام فالأفضل إعادتها بدلا من تجربة أشياء جديدة. هذا لأن تكلفة الفشل الفردية عالية جدا. وتتوقف جدارة المنفذ حسب تصرفه أو تصرفها الأخير. وهذا يخدم الانتهازية أكثر من تطوير الفرص الحقيقية.

obeikandl.com

أما النموذج الثالث لعملية الإبداع الناجم عن الخبرة فهو عدم التجميع يتبعه إعادة التجميع. إن الأشياء المعروفة في العمل تظهر في شكل منتج، على سبيل المثال منتج نهائي. وعندما يأتي الوقت لتقديم منتج جديد، يستبعد المنتج الأصلي ويعاد ترتيب المقومات بطريقة مختلفة. عادة تكون المقومات مختلطة ببعضها في عبوات مختلفة ولذا تتغير التركيبة باستمرار.

إن الإبداع الناتج عن الخبرة هو بالأساس قليل المخاطرة ويبحث في إعادة وترميم النجاح السابق. وتعد معظم الابتكارات التجارية من هذا النوع. وسوف نحصل على مستوى مقبول وثابت من الابتكارات الناجحة المعتدلة. ولكن لن يوجد شيء جديد حقا. وإذا فكر شخص ما بشيء جديد فعلا فإنه سيكون مرفوضا لأنه لن يكون هناك شواهد كافية لضمان النجاح المنشود. وكما قال سام جولدواين Sam Goldwyn ذات مرة: «ما نحتاجه حقيقة هو كليشات جديدة».

الدوافع

أما إبداع الدوافع فهو مهم جدا لأن معظم الناس الذين نراهم مبدعين يستوحون إبداعهم من هذا المصدر.

تعني الدوافع الرغبة في قضاء ما يقرب من خمس ساعات أسبوعيا في محاولة إيجاد طريقة أفضل لأداء العمل في حين يقضي أشخاص آخرون خمس دقائق في الأسبوع. تعني الدوافع بالبحث عن بدائل متعددة في حين يرضى الآخرون بالواضح منها. وتعني الدوافع أن يكون لديك الفضول لبحث التوضيحات. كما تعني الدوافع بتجربة الأشياء ومحاولة إصلاحها من أجل البحث عن فكرة جديدة.

هناك جانب هام في الدوافع وهو الرغبة في التوقف والنظر لأمور لم يتوقف عندها أي شخص للنظر فيها. هذه العملية البسيطة من التركيز على أشياء قد تبدو طبيعية ومضمونة هو مصدر قوي للإبداع، حتى ولو لم

تستخدم أي موهبة إبداعية خاصة للرؤية الجديدة. وهذه نقطة مهمة جدا سأعود لها لاحقا تحت موضوع التقنيات الإبداعية.

ولذا تعني الدوافع بذل الجهد والوقت ومحاولة تحقيق الإبداع. وعلى مر الزمن سوف يعود هذا الاستثمار علينا بأفكار جديدة ومبتكرة.

لا يعد ما مر من الموهبة الإبداعية أهم بكثير من الدوافع الإبداعية - وليس هنالك ما يضير بذلك. ولو تمكنا من إضافة بعض المهارات الإبداعية للدوافع الموجودة ستكون التركيبة أكثر قوة.

تعديل الحكم

هناك فرق بين المصور والرسام. فبينما يقف الرسام أمام اللوحة بألوانه، وفرشاته وروحه وكل ما يلزم لرسم اللوحة. نجد المصور يتجول حوله حاملا كامرته إلى أن يلفت انتباهه مشهد أو موضوع ما. وعند اختيار العمل، والموقع، والإضاءة، وغيرها يقوم المصور بتحويل المشهد الموعود في شكل صورة.

إن الإبداع الناتج عن الحكم المعدل قريبا جدا من إبداع المصور. فالشخص الذي يمكنه تعديل الحكم لا يأتي بأفكار جديدة. بل يمكنه التعرف على مكمن الفكرة في مراحلها البدائية. ولأن حكم هذا الشخص يمكن تعديله حسب السوق، واللغة السائدة في هذا المجال لذا يصير بإمكانه التقاط الفكرة وتحقيقها.

رغم أن هذا النوع من الإبداع يبدو أنه يفتقد الإبهار ورضا الذات باستنباط الفكرة، لكنه في الواقع قد يكون أكثر أهمية. فالفكرة التي تنشأ وتوضع في قالب بحيث يمكن تحقيقها خير من مجرد ولادتها فحسب.

ونجد كثير من الناس الذين حققوا النجاح بأفكار جديدة تماما أنهم استعاروا الفكرة بداية من شخص آخر ولكنهم جندوا طاقتهم الإبداعية لجعلها قابلة للتحقيق.

إن القدرة على رؤية قيمة الفكرة هو عمل إبداعي في حد ذاته. وإذا كانت الفكرة جديدة فمن الأهمية بمكان تشخيص قوتها. وإن الأشخاص الذين يطورون أفكارا بهذه الطريقة لابد أن يقيموا كهؤلاء الذين ينشئون الفكرة.

الحظ، الصدفة، الخطأ، والجنون

يزخر تاريخ الأفكار بالأمثلة على بيان كيف قام الكثير منها على الحظ، أو الصدفة، أو الخطأ، أو الجنون.

يجري التفكير التقليدي، والذي هو ملخص التاريخ في مسار واحد. إلى أن يحدث أمر ما ـ يأخذ الفكر بعيدا في اتجاه آخر وهناك يحدث اكتشاف جديد. لقد كان تقدم الكثير من العلوم الطبية نتيجة الصدفة، والخطأ، وملاحظة الظروف المحيطة. وتم اكتشاف أول مضاد حيوي عندما لاحظ الكسندر فليمنج Alexander Fleming تلوث عفني في طبق بسبب البكتريا أدى إلى ظهور البنسلين. وقد اكتشفت عملية المناعة من قبل باستور Pasteur نتيجة خطأ أحد مساعديه حيث قدم جرعة قليلة جدا من بكتريا الكوليرا لبعض الدجاج الذي قام بحمايتهم ضد الجرعة الكاملة التي أعطيت لهم لاحقا.

كذلك كولومبس Columbus لم يبحر باتجاه الغرب نحو المحيط الهندي إلا بسبب خطأ في استخدام المقاييس. فقد استخدم المقاييس المشتقة من مقاييس بتوليمي Ptolemy الخاطئة الخاصة بمحيط الكرة. وربما لو استخدم المقاييس الصحيحة، التي عمل بها إيراتوثينس Eratothenes (الذي عاش في الإسكندرية قبل بتوليمي)، لما كان سيبحر أبدا لأنه كان سيعلم أن سفينته لا يمكنها تحمل المؤونة الكافية.

وبطرق أخرى فإن مجمل الصناعات الإلكترونية (حوالي 150 بليون دولار سنويا في اليابان فقط) تعتمد على خطأ قام به لي دي فورست Lee de

Forrest فقد لاحظ لي دي فورست في مختبره أنه عندما تنتقل شرارة بين جسمين كرويين فإن لهب الغاز يتقطع. اعتقد أن هذا يعود سببه إلى «تأين» الهواء. ونتيجة لذلك واصل اكتشافه حتى وصل إلى الصمام الثلاثي. (وهو معروف أيضا بأنبوب التفريغ أو الصمام الحراري) الذي عن طريقه يمكن توسيع التيار باستخدام تلك القطعة المعدنية «المركم» حيث تعمل على تنظيم أكبر كم من التيار المار من المصدر الحراري على طبق التجميع.

أوضح هذا الاكتشاف العظيم المعاني الحقيقية الأولى للتوسع وساعد على ظهور صناعة الإلكترونيات. فقد كانت الأجهزة الكهربائية جميعها تستخدم أنابيب التفريغ قبل اكتشاف الترانزيستور.

يبدو أن الأمر كله كان خطأ وأن تقطّع لهب الغاز كان بسبب الضجيج الناجم عن انقطاع الشرارة.

غالبا ما ينتج عن الأخطاء، والشذوذ، والأشياء التي تأخذ مجرى خاطئا أفكارا جديدة ورؤى مختلفة. ذلك أن مثل تلك الأحداث خارج حدود «العقلانية» التي عادة ما نكون مجبرين على العمل في حدودها. تلك الحدود هي الخلاصة المقبولة لخبرات الماضي والتي يقوم على حراستها بحرص مجموعة من الناس خاصة من هؤلاء الذين لا يميلون لاكتساب أفكارا جديدة.

الجنون «الظاهري» هو مصدر للإبداع عندما يأتي شخص ما بفكرة لا توافق التيار السائد. ستجد الفكرة معارضة شديدة. كثير من الأفكار تكون جنونية وما تلبث أن تتلاشى. ولكن في بعض الأحيان تثبت الفكرة الجديدة والمجنونة أنها على حق والنماذج الموجودة يجب أن تتغير، ولكن ليس قبل أن تجد معارضة شديدة من قبل المدافعين عن النماذج القديمة.

ترى ما هي النقطة العملية التي تظهر لنا من هذا المصدر القوي للإبداع؟ ترى هل علينا أن نرتكب الأخطاء للوصول إلى هدف ما؟

هناك نقطة عملية جدا وهي أنه يجب علينا أن نعطي انتباها خاصا للأخطاء والأمور الشاذة عندما لا تسري الأمور كما نأمل.

النقطة الثانية التي لا بد من الإشارة لها هو الاستخدام المدروس للإثارة. وكما سنرى لاحقا، فإن أساليب الإثارة تسمح لنا بالجنون، بطريقة يمكن التحكم بها، لمدة 30 ثانية كل وقت. بهذه الطريقة يمكن أن نتخطى الحدود التي تعتمد على الخطأ، والحظ، والصدفة والجنون.

يقترح الشكل 13.1 كيف أن حدود الخبرة السابقة و«العقلانية» تحول اتجاه تفكيرنا. ويمكن تخطي تلك الحدود إما عن طريق الحظ، أو الصدفة، أو الخطأ، أو الجنون ـ أو الإثارة المدروسة.

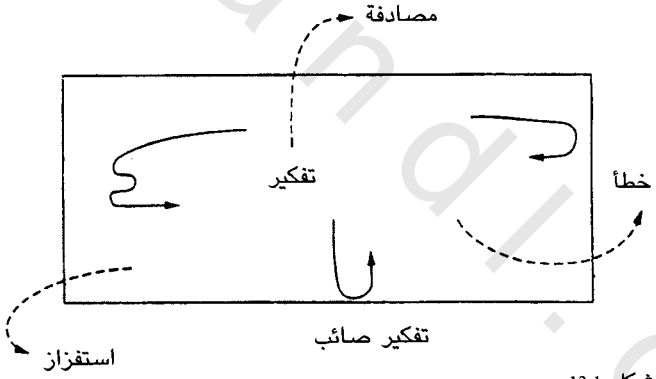

شكل 13.1

تظهر هنا نقطة أخرى مهمة أيضا. فمن الممكن بالنسبة للأشخاص الذين يعملون بمفردهم أن يحملوا أفكارا ويطوروها وقد يبدو عليها الجنون أو الغرابة في البداية ولا تصير مقبولة إلا فيما بعد. ولو فرض على شخص ما أن يعمل ضمن مجموعة في المراحل الأولى فلن يكون من الممكن تطوير أفكار جديدة لأن «منطق» المجموعة سوف يضغط على الفكرة ليحصرها ضمن الحدود المعقولة.

إن المجتمعات التي تعتمد فعلا على العمل الجماعي (مثل إيطاليا وأمريكا) قد تخسر مزايا هذا النمط في هذا المجال. أما الدول مثل بريطانيا بتقاليدها في طريقة عمل أفرادها دون تمركز حيث نجدهم يعملون في الأركان، قد يحظون هم بالمزية. وربما لذلك يمكن أن نفسر لماذا وجدت M.I.T.I في اليابان إن 51٪ من الأفكار النافذة التي ظهرت في القرن العشرين هي من بريطانيا ونسبة 21٪ فقط من أمريكا، رغم الاستثمار التكنولوجي الهائل في الولايات المتحدة.

ويجب أن يقال، على أي حال، إن تعقيدات العلوم الحديثة جعلت الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لمشاركة الأفراد. وربما معارضة الالتزام بعمل الفريق يعتبر أمرا أساسيا لتطوير الأفكار في المستقبل. ولهذا هناك حاجة كبيرة لتطوير مهارات مدروسة من أجل التحريض.

تم ترشيحي لاجتماع مسؤولين عن البترول في سنة 1970 لدراسة حفر آبار البترول بطريقة أفقية بدلا من كونها عمودية ـ وكذلك دراسة إمكانية استخدام الحفر الهيدروليكي. في ذلك الوقت كانت الفكرة تبدو «مجنونة». أما الآن فقد صارت الطريقة الحديثة لحفر الآبار لأنها تعطي نتائج فعالة في هذا المجال.

النمط

لقد تعاملت طويلا مع «النمطية» كمصدر واضح للإبداع. إن العمل من خلال النمطية يمكن أن يقدم لك جدولا من المنتجات الجديدة وهي تبدو جديدة لأنها جميعها مشتقة من ذات النمط الجديد. وليس هناك، على أي حال، جهد إبداعي فردي يخص كل منتج إلا بالشكل الذي يتوافق مع النمط. من الممكن أن يقدم هذا النوع من الإبداع قيمة عملية عالية ولكن ليس كمن يقوم بتوليد أفكار جديدة.

ولقد ذكرت سابقا أنه في بعض الحالات يكون إبداع الفنانين هو الإبداع الذي يقدم نمطا قويا وفعالا.

الإخلاء

كما كان لي تعليق بشكل موسع على الإبداع الذي برز نتيجة التخلي عن المحاذير والقيود التقليدية. وقد لاحظت أن قيمة هذا النوع محدودة وليست كافية لأن العقل لم يصمم أساسا ليكون مبدعا، لذا فإن تفريغ العقل يجعله أكثر إبداعا.

ويجب أن يقال، على أي حال، أنه من الممكن أن يقود أي تغير ثقافي لأي منظمة إلى نتائج إبداعية قيمة. وإن الأفراد سيعملون ليكونوا أكثر إبداعا لو كانت هناك رؤيا بأن الإبداع لعبة مسموح بها ويمثل أهمية للإدارة العليا.

من خلال تجربتي، عندما يبدي المدير الأعلى تعهدا قويا وصلبا نحو الإبداع (ليس فقط كلام شفهي) فمن الممكن أن تتغير ثقافة المنظمة سريعا. ربما لا يكون تخلصا تاما من القيود ولكن تقدير سريع لقيم جديدة و«لعبة» جديدة.

إن التخلص من الخوف والقيود هو جزء هام بالنسبة للإبداع وسيؤدي إلى نتائج مفيدة. ولكنها في حد ذاتها هي مرحلة أولية وليست كافية.

التفكير الجانبي

من الممكن أن تستخدم الأساليب المنظمة المبتكرة للتفكير الجانبي بشكل منهجي ومدروس من أجل توليد أفكار جديدة وتغيير المفاهيم. ويمكن أن تدرس تلك الأساليب والأدوات ويتم التدريب عليها وكذلك تطبيقها عند الحاجة.

إن هذه الأدوات مشتقة تماما من الاعتبارات المنطقية للإدراك، وهو منطق نظام المعلومات ذاتي التنظيم والذي يشكل النماذج ويستخدمها.

النقطة العملية المهمة أنه من الممكن لمثل تلك الأساليب والأدوات أن

تُدرس وتُستخدم. نستطيع القول بهذه الطريقة أنه يمكن تطوير مهارات التفكير الإبداعي.

ولا تعني القيمة العملية والمهمة لأساليب التفكير الجانبي، بالطبع، أن الإبداع لا يمكن أن يتدفق من مصادر أخرى أيضا.

obeikandl.com